العمارة الإفريقية الإسلامية بمدينة تمبكتو

دراسات في الخصائص والمميزات

مجلة دراسات إفريقية

Journal Homepage: http://studies.africansc.iq/
ISSN: 2518- 9271 (Print) ISSN: 2518- 9360 (Online)

العمارة الإفريقية الإسلامية بمدينة تمبكتو
دراسات في الخصائص والمميزات

أ.د إبراهيم صبحي السيد غندر
استاذ الاثار والحضارة الإسلامية بجامعة الفيوم – مصر
iss00@fayoum.ed.eg

تاريخ الاستلام:
٢٥/ ٧/ ٢٠٢٤
تاريخ القبول:
٣٠/ ٧/ ٢٠٢٤
تاريخ النشر:
١/ ٩/ ٢٠٢٤

الكلمات المفتاحية:
السودان الغربي، مالي، تمبكتو، العمارة الإسلامية، مساجد.

المجلد الثاني العدد (١٦)
صفر – ١٤٤٦هـ
أيلول ٢٠٢٤م

ملخص البحث:

تعد أهم مدينة تجارية بهذه البقاع وقد شيد المسلمون فيها عمائر ومنشآت دينية تشهد بمدى عبقرية المعمار المسلم في صياغة مختلف خامات البناء والانشاء بمختلف البيئات التي دخلها الإسلام فبالإضافة للكثير من المساجد، والمصليات الحديثة بتمبكتو، تضم المدينة القديمة مجموعة من العمائر الدينية الآثارية، التي عبَّرت عن الطراز المعماري الإسلامي بصفة عامة، وطراز مدن السودان الغربي على وجه الخصوص، وقد بلغت هذه المساجد من الشهرة ما بلغته مساجد القاهرة، والقيروان، وفاس في المغرب، وقد كانت المساجد وفقاً للمنظور الإسلامي العمراني هي اللبنة المركزية في نشأة المدن، وقد كان الأمر كذلك في تمبكتو، حيث نشأت هذه المساجد مبكراً، ومن ثم بدأ العمران يتمحور من حولها، ويمتد لمختلف أرباض المدينة، وتشهد هذه المساجد على براعة عمال البناء في تمبكتو، وذلك في تكييف تقنيات البناء التقليدية مع التقنيات "الحديثة" في الترميم، والتجديد من أجل إطالة عمر هذه المباني التي أصبحت عرضة للضياع والانهيار بسبب سوء الأحوال الجوية، وتقادم مواد البناء اليوم، ولا تزال المساجد الثلاثة الكبرى في المدينة قيد الاستخدام حتى اليوم، كما يستفيد بشكل كبير من ممارسات الصيانة السنوية والاهتمام والعناية كل من مسجد سنكوري، ومسجد جنجيري بير على وجه الخصوص، وبشكل غير منتظم مسجد سيدي يحيى التادلسي .

Islamic religious architecture in the city of Timbuktu Studies in characteristics and advantages

Prof. Dr Ibrahim Sobhi Ghandar
Professor of Archeology & Islamic Civilization, Fayoum University, Egypt
iss00@fayoum.ed.eg

Received:
25/7/2024
Accepted:
30/7/2024
Published:
1/9/2024

Keywords:
Alsuwdan algharbiu, Mali, Timbuktu, aleimarat aliaslamiat, masjid.

Journal of African Studies
volume (2)
Issue (16)
Safar 1446 H

Absrract

Timbuktu is one of the most famous and oldest Islamic cities in sub-Saharan Africa. It was the most important commercial city in these areas. Muslims built buildings and religious facilities there that testify to the extent of the genius of Muslim architecture in formulating various building and construction materials in the various environments that Islam entered. In addition to many mosques and modern chapels in Timbuktu, it includes the ancient city is a group of archaeological religious buildings that expressed the Islamic architectural style in general, and the style of the cities of Western Sudan in particular. These mosques reached as much fame as the mosques of Cairo, Kairouan, and Fez in Morocco. According to the Islamic urban perspective, the mosques were the central building block in the emergence of cities, and this was the case in Timbuktu, where these mosques arose early, and then urbanization began to revolve around them, and extend to various parts of the city. These mosques bear witness to the ingenuity of the construction workers in Timbuktu, in adapting traditional building techniques to new technologies. "Modern" in restoration and renovation in order to prolong the life of these buildings, which have become vulnerable to loss and collapse due to bad weather conditions and the obsolescence of building materials today. The three major mosques in the city are still in use today, and also benefit greatly from annual maintenance practices and attention. The Sankore Mosque, the Djingiri Pir Mosque in particular, and, on an irregular basis, the Sidi Yahia Tadlesi Mosque are also being taken care of.

المقدمة

العمارة الإسلامية واحدة من أشهر شواهد الحضارة الإسلامية في مجال العمارة والعمران، وتعتبر المساجد من أبرز شواهد هذه النوعية من العمارة لما لها من مكانةٍ دينيةٍ في قلوب المسلمين، ولما لها من اهتمامٍ واسعٍ من قبل العامة والخاصة على حد سواء فقد كان دأب الجميع خلال مختلف حقب العصر الإسلامية إنشاء هذه النوعية من هذه العمائر بغية الثواب من الله وبغية نشر تعاليم الشريعة ونهضة التعليم والتدريس واظهار شعائر الدين الإسلامي فانتشرت المساجد بمختلف أنواعها في مختلف أنحاء العالم الإسلامي ووجدت حيث دخل المسلمون وفتحوا البلدان ومصَّروا الأمصار، وكانت محل اهتمام كبير على مر العصور والازمان من أوقاف وتجديد وترميم وصيانه ومختلف ألوان العمارة. وتعتبر مساجد السودان الغربي واحدة من أهم تلك المساجد التي امتزجت فيها مختلف التأثيرات العربية الوافدة والتأثيرات الوافدة من الشمال الأفريقي والممتزجة كذلك بمختلف التأثيرات الأندلسية، وتتناول هذه الورقة البحثية هذه النوعية من العمائر في محاولة لابراز أهميتها وأشهر خصائصها وسماتها الفنية والمعمارية والحضارية.

مجال وزمان الدراسة

تنحصر هذه الدراسة في استقصاء جميع المعلومات التاريخية والآثارية الفنية والمعمارية حول عمارة المساجد بمدينة تمبكتو كأحد أشهر مدن السودان الغربي في العصر الإسلامي الوسيط، وتركز الدراسة على سائر الحقب التي مرت بها عمارة هذه المساجد منذ نشأتها وحتى العصر الحديث لبيان مدى التطور والتغيرات التي حدثت على عمارتها خارجياً وداخلياً .

أهمية الدراسة وأهدافها

تتجلى أهمية الدراسة في إبراز الدور المهم للعمارة الدينية في السودان الغربي كما تبين مدى تأثر عمارة المساجد بمختلف التأثيرات البيئية المحلية التراثية، وكذلك عديد من مظاهر التأثيرات الوافدة من مختلف المناطق التي كان لها احتكاك مباشر أو غير

مباشر بهذه المناطق.

منهجية الدراسة وأدواتها

اعتمدت الدراسة على المنهج الوصفي التحليلي المقارن لعمارة المساجد وذلك لكافة مكوناتها المعمارية ومخططاتها الهندسية ومكملاتها الانشائية وملاحقها وزياداتها وخامات بنائها، وقد اعتمدت الدراسة في ذلك على العديد من تقارير منظمة اليونسكو والمراجع التاريخية والمصادر الآثارية، وكذلك القرائن الأركيولوجية الباقية في مختلف هذه المساجد .

١- جامع سنكري

ويعتبر الأقدم، والأشهر على الاطلاق، وتذكر الروايات التاريخية أن من بنته كانت سيدة من قبائل الماندينجو، وقد فضلت عدم ذكر تفاصيل حول شخصيتها، وذلك كي تنال ثواب عمارة المساجد في السر، وقد عرف المسجد نسبةً لها، حيث كان إسمها سنكرى، ولايعرف تاريخ بنائه تحديداً؛ فقد اختلف في تاريخ بنائهِ؛ فمن قائل أنه بني في النصف الأول من القرن (٩هـ/ ١٥م)، ومن قائل أنه بني بعد سنة (٧٢٦هـ/ ١٣٢٥م)، غير أنه وفي كل الأحوال الأقدم على الاطلاق ضمن العمائر الدينية بتمبكتو، وقد تم تجديد المسجد أثناء بناء مسجد جنجيري بير الذي شيده المعمار الاندلسي أبو اسحاق الساحلى، وذلك ضمن النهضة العمرانية التي أحدثها السلطان المالي منسى موسى بالمدينة، ثم تصدعت وانهارت أجزاء كبيرة منه بعد تداعيها وأعيد بناؤها رسمياً على يد القاضي العاقب الذي أعطى هذه المرة المبنى أبعاد الكعبة المشرفة في مكة المكرمة، وكان القاضي قد عيّن تلك القياسات على سلك بعد أن حدَّد هذه الأطوال على خيوط أحضرها معه من مكة عقب حجه سنة (٩٨٦هـ/ ١٥٧٨م) لتعبر للبنائين عن الأبعاد المطلوبة.

وقد تمت تلك العمارة من طرف القاضي العاقب بن القاضي محمود في عام (٩٨٩هـ/ ١٥٨١م) في عهد الاسكيا داود، وبعد قرابة قرنٍ من الزمان، وتحديداً في

السابع من اغسطس سنة (هـ/ ١٦٧٨م) انهارت مئذنة المسجد، وتم إعادة بنائها مجدداً، وحدثت ضمن ذلك بعض الترميمات الأخرى للمسجد، وتشير المصادر التاريخية كذلك لوجود بعض التجديدات والاضافات الأخرى للمسجد منذ سنة (١٧٠٠-١٧١٠)[١]، كما حدثت بعض التجديدات الأخرى سنة ١٧٣٢[٢]، وقد تعاقب على امامته الكثير من العلماء، والأئمة، ومن أشهرهم الإمام أنداغ محمد بن الفقيه المختار النحوي، وقد ولاه القاضي محمود الإمامة في رمضان بعد وفاة أبيه، وكان عالماً متواضعاً مدّاحاً لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ومدرساً لكتاب الشفاء للقاضي عياض، وكذلك يعتبر الإمام محمد بن سيد بن أحمد من اشهر أئمته.

وقد شاهد الرحالة رينييه المسجد، وأطلق عليه لفظ المسجد الشرقي، وقدم وصفاً كاملاً له سنة ١٨٢٨؛ فذكر بأنه أصغر بكثير من المسجد الغربي (مسجد جنجيري بير)، وله مئذنة في شكل برج مربع مشابهة من حيث الشكل والأبعاد مأذنة المسجد الغربي، وتم تخديد وتجصيص الجدران بالكامل، كما تم تدعيمها من الخارج بدعامات ساندة لحمايتها من التصدع والانهيار.

والجامع ذو ثلاثة أروقة تبلغ مساحة الرواق تقريباً ستة اقدام في الاتساع، وثلاثة عشر قدماً في الطول، ويبلغ طول المسجد ثلاثين خطوة، وعرضه خمسة وعشرون خطوة تقريباً، والأروقة يبلغ عرضها تقريباً ثلاثة أقدام ونصف، ويبلغ ارتفاع أسقفها سبعة أقدام ونصف تقريباً، وهي مبنية من الطوب اللبن نفسه المبني منه المسجد الغربي، ويوجد صحن داخلي يجب المرور به قبل صعود المئذنة، ويبدو هذا المسجد قديم جداً فلم يدمر أي جزء منه، غير أن بناءه لم يتم بشكل منتظم، ولاحظ رينييه أن له بوابتين رئيسيتين تطل إحداهما على الجهة الجنوبية والأخرى تفتح على الجهة الشمالية، ولم يكن للجانبين الغربي والشرقي فتحات، وبالقرب من المسجد على الجانب الشرقي شوهدت

(١) مؤلف مجهول، **تذكرة النسيان**، ص ١٥٤.

(٢) عبد الرحمن السعدي، **تاريخ السودان** ص ١٨٠ . مؤلف مجهول، **تذكرة النسيان**، ص ٢١٦.

تلة صغيرة من الرمال، وبعض المباني تغطيها الرمال التي نسفتها الرياح الشرقية[1]. وقد استعاد المسجد رونقه بعد عملية تجديد شاملة على يد الشيخ البكاي قبيل منتصف القرن التاسع عشر وكان من أبرز ما استخدم في جدار القبلة من الداخل البلاطات الخزفية المزججة المجلوبة من مراكش.

تخطيط المسجد

يتبع المسجد النظام التقليدي في التخطيط، وهو تخطيط مسجد النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالمدينة المنورة، حيث يتكون من صحن أوسط مكشوف تحيط به أربع ظلات (إيوانات)؛ اكبرها ظلة القبلة، وهي في الجهة الشرقية، وهي مستطيلة المساحة وتتكون من أربع بلاطات موازية لجدار القبلة، ويحدد كيان هذه البلاطات ثلاث صفوف مركزية من البوائك المكوّنة من دعامات مبنية بالطوب اللبن، وهي غير متساوية وغير منتظمة في وضعياتها حيث أنها تشبه جدران (حوائط) ممتدة تتخللها بعض الفتحات، ويفتح في البلاطه الثالثة من جهة جدار القبلة فتحة باب تؤدي لحرم المسجد في الجهة الشمالية منه، ويوجد المدخل الرئيسي للمسجد حالياً في الجهة الجنوبية من ظلة القبلة؛ حيث رحبة شبه مستطيلة غير منتظمة الأضلاع أشبه بدركاة مدخل، ويتم الدخول لها من الشارع عبر فتحتين نافذتين بدون أبواب يفتحان لجهة الجنوب، ومن ثم يمكن دخول ظلة القبلة مباشرة من خلال فتحة باب رئيسية تفضي مباشرة للبلاطة الثانية من بلاطات ظلة القبلة من جهة جدار القبلة .

ويقع المحراب في جدار القبلة غير أنه لايتوسط الجدار الشرقي تماماً؛ حيث يقترب أكثر من الجهة الشمالية، ويبدو المحراب ضخماً جداً من الخارج في شكل برج نصف اسطواني يستدق كلما اقتربنا من أعلى، لوحة (٧)، وتفتح ظلة القبلة على الصحن عبر فتحتين تحصران فيما بينهما محراباً في سمك الجدار، كما تفتح ظلة القبلة كذلك على الظلة الشمالية عبر فتحة واحدة، وتتكون هذه الظلة الشمالية من مساحة مستطيلة مقسمة على خمس بلاطات موازية لجدار القبلة لوحة (٩)، عن طريق أربع حواجز مبنية بالطوب

(1) Rene Caillie, Travels through Central Africa to Timbuctoo, p.243.

اللبن تتخللهم فتحات غير منتظمة، ويفتح في البلاطة الثانية بابين محوريين يودي الجنوبي الي الصحن، ويؤدي الشمالي لخارج المسجد، وتتميز البلاطة الرابعة بوجود باب يؤدي للبلاطه الخامسة، وهي أشبه بخلوة مغلقة سوي من فتحة شباكٍ تفتح في الجهة الشرقية في البلاطة الرابعة.

أما بالنسبة للظلة الغربية فهي تتكون من ثلاث بلاطات موازية لجدار القبلة، وغير متساوية في أطوالها، غير أنها متساوية في عرضها، ويحدد بلاطاتها صفان من البوائك غير المنتظمة؛ عبارة عن جدران ممتدة تتخللها فتحات غير منتظمة الاتساع، ويفتح في شمال البلاطة الأولى من جهة الصحن فتحة باب تؤدي لخارج المسجد، كما يفتح في البلاطة الثانية إلي جهة الجنوب فتحة باب أخرى تؤدي لخارج المسجد، كما يفتح في منتصف جدار البلاطة الثالثة الغربية تقريباً فتحة باب تفضي لخارج المسجد. أما الظلة الثالثة وهي الظلة الجنوبية؛ فليس بها سوى بلاطتين فقط موازيتين لجدار القبلة، وتتصل هذه الظلة بالظلة الغربية وتتميز البلاطة الأولى من جهة المئذنة بوجود فتحة باب تؤدي لخارج المسجد، ويشغل أغلب هذا الجانب الموجود به الظلة كتلة مأذنة، وهي هرمية ضخمة تشكل قاعدتها كتلة بنائية شبه مربعة، وتشرف على الخارج والداخل في الوقت نفسه، ويستدق بدنها كلما ارتفعنا لأعلى، وهي تبرز عن سمت الجدران الخارجية للمسجد وترتفع لحوالي ١٨ متر تقريباً، ويتم الصعود لها من درج بالصحن يؤدي لباب يفتح على سطح المسجد، ويمكن بعد ذلك دخول المأذنة من فتحة تؤدي لقمتها، وتنتهي من أعلى بكتلة بنائية مربعة محددة الأركان بحطات طينية بارزة لأعلى في شكل زخرفي، وتحصر فيما بينها قمّة مرتفعة نصف كروية، ويتخلل بدن المئذنة بالكامل مدّادات خشبية في شكل حزم ثلاثية؛ وذلك للتدعيم ولاستخدامها كذلك في تسلقها أوقات الترميمات والتجديدات الخارجية لوحة (٨).

المسجد من الخارج

للمسجد أربع واجهات حرة مكشوفة، وتتميز واجهات المسجد بوجود الأكتاف الداعمة، والتي تعتبر من أشهر تقنيات البناء بالطين، وتساعد هذه الأكتاف على تماسك

الجدران، وترابطها، وتبرز هذه الدعامات دوماً فوق مستوى الأسطح في شكل حطات زخرفية شبه مدببة تشبه قمم المسلات الفرعونية القديمة، ويربط بين كل دعامة وأخرى الأربطة الخشبية التي تبدو في شكل عقود (أعتاب) مستقيمة تشكل أحياناً اعتاب للأبواب، إن وجدت أبواب في الواجهات، كما تشكل روابط إنشائية في ذات الوقت، ويوجد كذلك في الواجهات نوع أخر من الدعامات؛ وهي الركنية والتي تساعد في ربط الجدران المستقيمة، حتى لاتحدث التصدعات أوالشقوق والفجوات، ولايزال يوجد منها واحد عند الركن الشمالي الشرقي من المسجد، وتخلو الواجهات من ثمّة زخارف أو كتابات معينة، ويتوج قمّة الجدران من أعلى حطات طينية مشكلة في هيئات زخرفية بسيطة للغاية، تشعر الناظر وكأنها شرّافات، وتنتشر على امتداد الواجهات مياذيب صرف المياه التي تتصل مباشرة بأرضية الأسطح العلوية للمسجد، كما تفتح في الواجهات مجموعة من الأبواب الخشبية ذات المصاريع المحلاة بصفائح في شكل قطع زخرفية مربعة أو مستطيلة أو دائرية.

وكان المسجد قد وصل لحالة سيئة جداً أثناء الاستعمار الفرنسي، وفيما بعد ذلك، ومن ثم أجريت له كثير من التجديدات وعمليات الانقاذ، بتعاون منظمة اليونسكو والمركز الدولي للأبنية الطينية (CRATerre -ENSAG)، وكان ذلك سنة ١٩٩٦، ولم يعد المسجد يعاني الآن من مشاكل الرمال سوى الجزء الغربي منه، وتم تجصيص كثير من أجزائهِ من قبل الأهالي سنة ٢٠٠٦، وتم ضمّ المسجد إلى قائمة التراث الإنساني العالمي بواسطة المنظمة سنة ٢٠٠٧.

٢- جامع جنجيري بير (الكبير)

هو الجامع الكبير، ثاني أشهر وأقدم المساجد بعد سنكوري، وقديما كان اسم المنطقة التي يقع بها المسجد ربع جنجيري بير، والآن يقع المسجد في بداية الطريق السياحي، وذكره ليون الإفريقي بأنه يقع في وسط المدينة، وأنه مبنى بالحجر المركب بالطين والجير[١]، فقد تم بناؤه إذاً منذ عام ١٣٢٥م من قبل الشاعر أبي إسحاق الساحلي

(١) ليون الافريقي، **وصف إفريقيا**، ١٦٥، ١٦٦.

الغرناطي الأندلسي، والذي منحه السلطان منسا موسى وفقًا للروايات التاريخية أربعين ألف مثقالاً من الذهب لتلبية احتياجات هذا العمل المعماري المهيب، وقد بُني الهيكل الأساس من الآجر مع الملاط الجيري، وزين المسجد بقبة مربعة الشكل بناها من الكلس والطين، وأضفى عليها من الأصباغ والألوان المتناغمة ماجعل المسجد من أتقن المباني، حتى أن السلطان منسى موسى اندهش لفقدان بلاده مثل هذا النمط من البناء، وقد كافأ منسى موسى إبن الطويجن باثني عشر ألف مثقالاً من الذهب نتيجة براعته في هذا الانجاز، وكان أبو القاسم التواتي من أشهر أئمة المسجد وتلاه الإمام منصور الفزّاني؛ وهو تلميذه، وخلفه في منصب الإمامة بعد وفاته، وهو من علماء بلاد المغرب، ومنهم كذلك الفقيه إبراهيم الزلفي، وتولى الإمامة بعد منصور الفزّاني، وكان عالماً بالتجويد، وقد جاء لتمبكتو مع جماعة من علماء وأشراف تافيلات.

وقد انهارت أجزاء كبيرة من المسجد فيما بعد، وذلك قبيل أن يعيد القاضي العاقب (١٥٠٧-١٥٨٣) بناءهُ بالكامل، وانتهت عمارته الحديثة بالكامل سنة١٥٧٠ [١]، ثم تصدّعت المأذنة وانهارت فيما بعد[٢]، وبعد ذلك تم ضمّ المقبرة الغربية داخل محيط المسجد[٣]، كما حدثت ترميمات وتجديدات أخرى على مختلف أجزاء المسجد عام١٦٧٨ [٤]، وكان ذلك عندما انهار جانب كامل من السطح، وبعد ذلك وتحديداً بين عامي ١٧٠٩ و١٧٣٦ تم توسعة الصحن المركزي وإجراء العديد من التجديدات والترميمات خاصة في الجزء الغربي منه[٥].

وقد قدم رينييه وصفاً شاملاً للمسجد سنة ١٨٢٨ فذكر؛ أنه يعرف بالمسجد

(١) عبد الرحمن السعدي، **تاريخ السودان**، ص ١٧٧

(٢) عبد الرحمن السعدي، **تاريخ السودان**، ص ٣٣٠.

(٣) مؤلف مجهول، **تذكرة النسيان**، ص ١٤.

(٤) مؤلف مجهول، **تذكرة النسيان**، ص ١٤

(5) UNESCO, Plan de conservation et de gestion de Tombouctou, p.28.

الغربي حيث يقع في الجانب الغربي من المدينة، وهو أكبر من المسجد الشرقي (سنكري) الموجود في الشرق، ولكنه مبني بالنمط نفسه وجدرانه في حالة سيئة، حيث تضررت الواجهات بشكل كبير، والجدران الخارجية مزوّدة بالعديد من الدعامات، وقد ارتقى المأذنة رغم أن درجاتها الداخلية كانت شبه متآكلة، كما تردّد كثيراً على المسجد لتدوين مختلف ملاحظاته[١]، ويبدو الحي الغربي الموجود به المسجد قديم جدًا، والواجهة بأكملها في هذا الجانب شبه مدمّرة كليّاً، وهناك أيضا بعض الأروقة المسقوفة التي تتصل بالواجهة المطليّة بالجص، والمسجد مبني بالطوب اللبن كشأن بقية منشآت المدينة، والباقى من الواجهة الرئيسة ـ والتي يبدو أنها بنيت بعد القسم الغربي ـ في حالة خراب أيضاً، وعلى الرغم من أن الجزء المجدد يبدو حسناً إلا أنهُ ليس بقيمة الأجزاء الآثارية من المسجد لوحة (٢) .

وقد قسم رينيه المسجد على قسمين: الغربي؛ وهو الأصلي والأقدم، وفيه ثلاث أروقة ضخمة موازية لاتجاه القبلة، ويقسمّها عشر صفوف من البائكات المتعامدة على اتجاه القبلة، وكل صفّ من صفوف البائكات العشرة يحتوى على ثلاث دعامات، تم بناؤها جيدًا كما لو كانت من عمل مهندس ماهر، ويبلغ عمق المسافه بين كل صفين من صفوف الدعامات المتعامدة على اتجاه القبلة ستة أقدام[٢]، في حين يبلغ ارتفاعها حتى السقف عشرة أقدام، كما قام بقياس أمتداد هذا القسم من الشمال للجنوب فبلغ تسعة

(١) ولم يكن خائفًا على حد قوله من أن يتم ملاحظته فخلال هذه الزيارات، كان يرتدي الزي الإسلامي فيبدو وكأنه من أحد المرابطين (الأولياء) الصالحين، كما كان يحاول دائماً إخفاء نفسه في أثناء الكتابة، لئلا يوقظ شكوك المسلمين؛ فقد حاول دائمًا الاختفاء خلف بعض الأكمات النباتية أو الجلوس تحت ظل شجيرة أو صخرة مرتفعة، وكان معة بعض أوراق من القرآن الكريم وأوراق أخرى لتسجيل ملاحظاته وكلما رأى أحداً يقترب منه يقوم باخفاء أوراق الملاحظات وإبراز اوراق القرآن الكريم ويأخذ في التلاوة بجد حتى أن من يرونه هكذا منهمكاً في التلاوة ومنخرطاً في التدبر والقراءة يثنون عليه ويدعون له بالقبول ولايساورهم الشك في مدى صلاحه وتقواه وشدة ورعه وهم منخدعون بالتأكيد في كل ما يبديه لهم .

(٢) أي حوالي ١,٨٢٨٨ متر.

وثلاثين خطوة عادية فقط[١]، وكانت بقايا الجص في هذا القسم بحالة ممتازة ويبدو أنه مجدد حديثاً، وتوحي سمات هذا القسم من المسجد بأنه الجزء الأثري الأقدم، ويميل رينييه للاعتقاد بأن المسجد كان يتألف في الأصل من هذا الجزء فقط، وأن التوسعات قد حدثت بعد ذلك في مجمل المباني المضافة.

أما القسم الشرقي؛ فيتكون من جزأين الأول: وهو القريب من جدار القبلة وقوامه؛ أربع بلاطات موازية لجدار القبلة، ويقسمهم ثلاث صفوف من البائكات الموازية لجدار القبلة، ويشتمل كل صف من البائكات على ثمانية عشرة دعامة، وقدّر رينييه امتداد هذا الجزء من الجدار الشمالي للجدار الجنوبي بنحو مائة وأربع خطوات عادية، وأما عرض كل بلاطه من البلاطات فقدّره بحوالي خطوتين ونصف، وتبلغ المسافة من بداية البائكة الثالثة وحتى جدار القبلة ستة أقدام ونصف، وأما ارتفاع صفوف الدعامات حتى السقف فيبلغ حوالي عشرة أو أحد عشر قدماً. أما الجزء الثاني من هذا القسم؛ وهو الموجود باتجاه الصحن فمكوّن من ثلاث بلاطات، وثلاثة صفوف من البائكات، في كل صفّ اثنتا عشرة دعامة موازية لاتجاه القبلة، وقدّر طول هذا القسم من الشمال للجنوب بحوالي أربع وستين خطوة عادية، وعلى الرغم من أن كلا الجزأين في القسم الشرقي من المسجد يبدو فيهما مدى الاتقان في التنفيذ إلى حد كبير، إلا أنهما بعيدان كل البعد عن مضاهاة القسم الأصلي.

ووصفت المأذنة بأنها كبيرة، وضخمة، وتوجد في صحن المسجد، ومبنية بالطوب اللبن، وهو مغلقة من جهة قاعدتها الغربية بسبب الأنقاض، وتبدو مربعة الشكل من أسفل، غير أنها تنتهي بقمة هرمية صغيرة تبدو الآن مبتورة، ويقدر ارتفاعها بحوالي خمسين أو خمسة وخمسين قدماً من القاعدة للقمّة، ويرتقي المؤذنين درجات سلمها الداخلي المدعّم بالمدّادات الخشبية[٢] المثبتة في الجدران والمغطاة بالطين، وصعد رينية

(١) تقدر الخطوة العادية المعتدلة بالتقريب بحوالي من ٥٠ : ٦٠ سنتيمتر.

(٢) المدادات الخشبية هي ألواح من الأخشاب المحلية تشكل الكيان الإنشائي لدرجات السلم والتي يتم البناء أعلاها بالطين أو بصفوف من المداميك اللبنية التي تشكل صلب مادة البناء الرئيسية،

اثنتين وثلاثين درجة من سلمها غير أن العديد من درجاته المتداعية منعته استكمال الصعود للقمة فلم يُحصَ على وجه الدقة ارتفاعها بالكامل أو عدد درجات سلمها.

ويبلغ ارتفاع أسوار المسجد الخارجية خمس عشرة قدماً، كما يبلغ سمكها من عشرين إلي خمس أو ست وعشرين بوصة، ويحلى أعلى الجدار الشرقي إطار زخرفي في هيئة حطات[١] مستطيلة من الطوب اللبن تشبه الشرافات، وتعلوها قمم هرمية بسيطة تتشابه مع ما يحلي قمّة المئذنة.

وقد لاحظ رينييه خلف جدار القبلة تجويف المحراب البارز؛ والذي تم تشييده بطريقة زخرفية أوحت له بأنه مأذنة، غير أنه ليس كذلك فهو يبدو من الخارج كبرج نصف مستدير الشكل، ويبلغ ارتفاعه حوالي ثلاثين قدمًا، وهو متوّج من أعلى بقمة هرمية مدببة في شكل مخروطي، غرست فيها مجموعة من جذوع الأشجار، وحليّ في نهاياته بشكل بيضة نعام، وقد لاحظ رينييه ضمن مكونات المسجد ما أطلق عليه شرفة تصل إلي قرب سقف المسجد، وشبهها بالبرج، ويحيط بها سياج حاجز يرتفع بمقدار ثمانية عشر بوصة[٢].

وقد استخدمت المددات كمكون معماري خفيف ضمن الوحدات المعمارية ذات الارتفاعات وذلك خشية التصدع أو الانهيار بسبب ضعف وهشاشة مواد البناء التقليدية البسيطة.

(١) الحطّة هي كتلة بنائية مكوّنة من صفوف مرصوصة من المداميك اللبنية في هيئة زخرفية تشبه الشرافات والتي عرفت بوثائق وحجج العمارة الإسلامية بالعصر المملوكي بمصطلح (أخطرة البنيان) وهي تعلو الجدران التي تشكل مختلف الواجهات الخارجية وربما الداخلية كذلك للعمارة الدينية على وجه الخصوص وتلعب دور هام في الشكل المعماري الوظيفي وكذلك الزخرفي والجمالي وتوجد نماذج عديدة ومتنوعة منها .

(٢) يشير هنا Rene Caillie إلي منطقة مغلقة ربما تكون دكّة للمؤذنين أو ربما مصلى للنساء، وقد ذكر أنها أشبه بمقصورة ملكيّة يرتقيها السلطان أو الوالي أثناء الاحتفالات الرسمية أو المناسبات الدينية (كصلاة الجمعة والعيدين) ومن المحتمل أنها ربما كانت دكة للمبلغين قياساً بحجم المسجد الكبير واتساع مكوناته وعدم انتظامها والحاجة في ذلك الوقت لترديد تكبيرات الأمام أو ترجمة بعض العبارات العربية للغة السنغاي أثناء الخطب الرسمية حيث لم يكن الغالبية العظمى من سكان البلاد

أما السقف فمدعّم بعوارض خشبية، تتكون من جذوع النخل التي يتم تقسيمها لأربعة أجزاء، وتوضع على مسافة قدم من بعضها البعض، ثم يتم وضع قطع من خشب السالفادورا(١)، وتقطّع بطول المسافات بين العوارض الخشبية، ثم توضع بشكل غير مباشر في صفوف مزدوجة، ومتقاطعة مع بعضها البعض، وكأنها معشقة، ثم يفرش من فوقها الحصير المصنوعة من أوراق شجرة رونييه(٢)، وتتم في النهاية التغطية بطبقات غير كثيفة من الطين المخلوط بالزبد النباتي(٣).

وللمسجد خمسة أبواب مختلفة الأحجام، في الجهة الشرقية ثلاثة إلي الجنوب، واثنان إلي الشمال، وعلى الجانب الغربي تشكل الأنقاض في آن واحد حدود المسجد والمدينة، وعلى الجانبين الشرقي والشمالي أرضية المسجد في مستوى أرضية الشارع نفسها المحيطة بالمبنى، أما في الجنوب فيتم الصعود لمستوى المسجد عبر أربع درجات،

يجيدون اللغة العربية .

(١) هذا النوع من الأخشاب محلى ينبت في البيئات الحارة ويتم جلبهُ من كابرا حيث تزرع أشجار كثيراً هناك وهي من الفصيلة الأراكية وتستخدم أخشابها في أغراض التسقيف والتدعيم المعماري وصناعة بعض النوافذ والبواب الخشبية البسيطة بالأضافة لدخول بعض من الأشجار الأخرى في ذلك أيضاً .

(٢) نوع من الاخشاب يستخرج من نخيل يشبه نخيل الزينه وكان منتشراً في مختلف مناطق غرب إفريقيا ويعرف بالبلمير أو التال أو البوراس، وهو جنس نباتي يتبع فصيلة الفوفليه والتي تنبت محلياً وهي تشبه نخيل الزينه وتستخدم أخشابها كذلك في بعض الصناعات الانشائية التكميلة للعمارة كالأسقف والعقود والدعائم وذلك بعد معالجتها وجفافها تماماً من الرطوبة .

(٣) تستخدم الزبدة النباتية كمكون أساس من مكونات الطوب اللبن كما تدخل ضمن مادة الطين عند اللياسة الخارجية للأسقف أو الجدران والتشطيبات الزخرفية، ويكون لها دور هام جداً كمادة عازلة تعمل على عدم تخلل مياه الأمطار للمسام وهو الأمر الذي يطيل في عمر مادة الطين لسنوات عديدة المرجع :

Mariana Correia, Luis Guerrero & Anthony Crosby (2015) Technical Strategies for Conservation of Earthen Archaeological Architecture, Conservation and Management of Archaeological Sites, 17:3, 224-256, DOI: 10.1080/13505033.2015.1129799

ويحلي جدار القبلة من الداخل بعض الزخارف المنفذة بالطين ذي اللون الأصفر في شكل مسننات وأكاليل مثلثة بارتفاع قدمين، لوحة (١)، وتبدأ دعامات المسجد من أسفل لارتفاع حوالي ثمانية عشرة قدماً، حيث تحمل السقف، وتشكل كيان البائكات، وهي محلاة بنفس الزخارف وبنفس أسلوب التنفيذ، غير أنها بدأت تتلاشى الآن إلي حد كبير، وتتوسط دخلة المحراب الجدار الشرقي، وإلي جوار المحراب منبر خشبي كبير، ويحلي الجدران بعض الزخارف البسيطة لوحة (٥)، وأرضية المسجد مفروشة بالحصير.

تخطيط المسجد حالياً

المسجد مخطط على الطراز التقليدي، ولكن بشكل غير منتظم؛ حيث يتكون من ظلة القبلة؛ وهي الأضخم ضمن مكونات المسجد على الاطلاق؛ وتتكون حالياً من تسع بلاطات موازية لجدار القبلة، ويفتح بالطرف الشمالي والجنوبي للبلاطة الثانية من جهة جدار القبلة بابان محوريان، كما يفتح بالطرف الشمالي من جدار القبلة باب أخر، كما يفتح بالطرف الجنوبي من البلاطة الرابعة من جهة جدار القبلة باب أخر، وتتميز البلاطات الأولى والثانية والثالثة والثامنة والتاسعة بأنها الأكثر امتداداً من الشمال للجنوب، حيث يشغل الصحن الشمالي للمسجد وكذلك المأذنة جزء كبير من امتدادات البلاطات الرابعة والخامسة والسادسة والسابعة من الجهة الشمالية لوحة (٣) .

ويبدو هذا الصحن محاطاً من الأربع جهات بالظلات، كما يفتح في جدار المسجد الشمالي باب يؤدي لبلاطة واحدة تتعامد دعاماتها على اتجاه جدار القبلة، والي يسار الداخل من هذا الباب توجد منطقة مستطيلة محاطة بسور منخفض مدفون بها بعض العلماء والصالحين، كما أن هناك منطقة أخرى مشابهة لتلك ملاصقة لجدار القبلة من الخارج جنوب بروز كتلة المحراب، كما أن هناك باب في الجهة الغربية من الصحن يفتح بالجهة الغربية من الصحن، وتقع المأذنة في الركن الجنوبي الشرقي من الصحن وهي بمواصفات مأذنة جامع سنكري نفسها، وللمسجد زيادة كبيرة في الجهة الغربية على شكل حرف U غير منتظم، وتشكل هذه الزيادة ما يشبه صحن أوسط وثلاث ظلات جانبية من الغرب والشمال والجنوب مكشوفة تماماً لوحة (٤)، وبالجدران الخارجية

لهذه الزيادة ثلاثة أبواب في كل من الشمال والجنوب والغرب، وتؤدي الأبواب لمناطق داخلية يفصلها عن الصحن جدران يتخللها أربعةُ أبواب؛ اثنان في الغرب وواحد في الشمال وآخر بالجنوب، وتتسم واجهات المسجد من الخارج بعدم الانتظام، وتظهر على امتداداتها الاكتاف الداعمة لوحة (٦)، وقد بنيت أساسات هذا المسجد بالطوب الآجر المحروق المصنوع من خامات شديدة القساوة مجلوبة من منطقة صحراوية شمال تمبكتو تتميز طينتها الرمادية ورمالها بالصلابة [١].

وقد قامت منظمة اليونسكو وفقاً للخطة الموضوعة بترميم وصيانة الحرم، والجزء الشمالي حوله والجزء الجنوبي حتى القسم الغربي، كما قامت بترميم خمسٍ وعشرين دعامةً في رواق القبلة من الشمال للجنوب، وثمانية دعامات في اتجاه من الشرق للغرب، مع ترميم بعض مناطق الأسقف بصفائح معدنية، كما تم تدعيم الجزء الغربي من السقف، وكذلك المحراب، والكسوة الخارجية المصنوعة من الطوب اللبن والكسوة الطينية، وتم وضع طبقة من مادة الجص البيضاء أعلى الجدران المبنية من أحجار الحور في الواجهة الرئيسية، أما باقي المسجد فقد تم تجديده بالكامل من الطوب اللبن، وتم احترام النمط الأصلي للمسجد، ومجموعة الأضرحة والمساطب الجنائزية التي تحيط به وتكتنفه، والتي تعرف بمصاطب البانكو، كما تم ترميم القمم الهرمية للمئذنة سنة ٢٠٠٦، وكذلك تدعيم الحزم الخشبية التي تتخللها والتي تستخدم كسقّالات لارتقائها من قبل الناس في أثناء عمليات الترميم والتجديد، وتم وضع مجموعة من المراحيض خارج حيز المسجد[٢].

٣- جامع سيدي يحيى التادلسي

كان المسجد في بداية الأمر عبارة عن بيت صغير اتخذه العالم يحيى التادلسي للتدريس فيه عام (٨٤٣هـ/ ١٤٤٠م)، وبعد قليل قام بتحويله إلي مصلى صغير، ومع مرور الزمن خرب هذا المنزل، وساءت حالته ولم يبق منه إلا موضعه، وخلال سلطنة

(1) Rene Caillie, Travels through Central Africa to Timbuctoo, p.248.

(2) UNESCO, Plan de conservation et de gestion de Tombouctou, p. 35.

الشريف الهاشمي السلطان مولاي أحمد الذهبي سلطان المغرب على تمبكتو فوض أمر تنبكت لمحمد نضّ (نده)، وهو صنهاجي من قبيلة أجر، وأصله شنقيط وهو أصل جميع هذه القبيلة، وقد كان لهذا الأمير اعتقاد كبير في الشيخ يحيى وصحبة معهُ، فقام بضم مساحة البيت إلى مساحة أرض مجاورة لها، وقام ببنائها مسجداً، وجعل الشيخ سيدي يحيى التادلسي أول إمام له فعرف المسجد باسمه، وظل الشيخ سيدي يحيى التادلسي إماماً له إلي أن وافته المنية سنة (٨٨٨هـ/ ١٤٨٣م) في اليوم نفسه الذي توفى فيه الأمير محمد نضّ فدفنا معاً إلي جوار بعضهما داخل مقبرة ملحقة بهذا المسجد، ويقع المسجد حالياً وسط المدينة وقد عرف المسجد كذلك بمسجد محمد ندة (نادي)، وقد مر المسجد بالعديد من التعديلات والإضافات وكذلك الترميمات، ومن ذلك إعادة بنائه في عام (١٣٥٨هـ/ ١٩٣٩م)، ولاتزال المأذنة تحتفظ بمظهرها الأصلي وهي تتشابه مع مآذن المساجد السابقة، غير أنها أقل ارتفاعاً منها، وتحليها من أعلى قمة مدببة متوجة ببيضة نعام.

ويعتبر المسجد من بين المساجد الثلاثة المدرجة في قائمة التراث العالمي بتمبكتو والمصنفة على أنها تراث وطني، ويعتبر المسجد هو الأكثر عرضة للتغييرات؛ حيث شيدت واجهاته بالكامل من حجر الحور، ولذلك فلا يتم تجصيصة أو ترميمه سنوياً من قبل السكان مثل بقية المساجد التي كانت تخضع لذلك.

تخطيط المسجد

المسجد حالياً يتكون من ثلاث ظلات غير منتظمة الشكل لوحة (١٠)؛ الكبرى هي ظلة القبلة، وهي أصل المسجد، وتتكون من مساحة مستطيلة تتجة من الشمال للجنوب، وهي مقسمة على أربع بلاطات موازية لجدار القبلة عن طريق ثلاث صفوف من البائكات الموازية لجدار القبلة، عبارة عن دعامات مستطيلة الشكل مبنية بالمداميك اللبنية، ويفتح بالطرف الشمالي لكل بلاطة من البلاطات الثلاث الأولى من جهة جدار القبلة باب محوري، ويتوسط جدار القبلة محراب نصف دائري عميق، والي يمينه توجد فتحتى باب، وإلي يساره توجد فتحة باب أخرى تفتح في صحن يتقدم الظلة به بعض

المزروعات والنباتات المصرية، وبعض من أشجار السلفادور.

وتوجد كتلة المأذنة في الركن الشمالي الغربي من ظلة القبلة لوحة (١١) وهي بنفس مواصفات المآذن السابقة في سنكري وجنجيري بير، ويمكن ارتقائها من خلال درج موجود بالبلاطه الرابعة من بلاطات الظلة، ويتقدم المأذنة الي الشمال مساحة مستطيلة استغلت كجبانة صغيرة دفن بها بعض الأولياء والصالحين، ويحيط بها سور منخفض، وفيها بابان محوريان أحدهما في الغرب والأخر في الشرق، وإلي الغرب من ظلة القبلة يوجد مساحة من الأرض غير منتظمة الشكل بها بعض المزروعات والنباتات، وهي عبارة عن جبانة رئيسية من جبانات تمبكتو عرفت بجبانة سيدي يحيى.

وخلف ظلة القبلة وباتجاه الشرق يوجد صحن المسجد وهو على شكل حرف T غير منتظم، ويشغله من الجهة الشمالية مساحة مستطيلة الشكل مقسمة لثلاث بلاطات متعامدة على اتجاه جدار القبلة، وتضم البلاطة الشمالية ثلاث مناطق مستطيلة؛ عبارة عن غرف تفتح في البلاطة الوسطى، وتضم البلاطة الجنوبية ثلاث مناطق كذلك تفتح اثنتان منهما في البلاطة الوسطى، أما المنطقة الثالثة إلي الغرب فهي أشبه بدركاة مدخل يؤدي إليها باب يفتح في الطرف الغربي من البلاطة الجنوبية، ويفتح بالبلاطة الوسطى فتحة باب محورية بالطرف الغربي لها .

ويتصدر الطرف الشمالي الشرقي من الصحن مساحة مستطيلة مسورة بسورٍ ذي دعامات ساندة، ومدفون بها كثير من أئمة المسجد، ولذا عرفت بجبانة الأئمة، ولها فتحتان باب؛ الشمالي: في البلاطة الجنوبية، والجنوبي: في الصحن مباشرة، أما الطرف الجنوبي من الصحن فبه كتلة مدخل رئيسي عبارة عن فتحة باب تفضي لدركاة تؤدي مباشرة الي الصحن، ويجاورها إلي الشرق حاصل من حواصل التخزين، يفتح داخل صحن المسجد مباشرة، ويتوج الواجهة الرئيسة التي تشرف على الصحن عديد من الحطّات المحلاة ببيض النعام.

ومن ضمن أهم أعمال الترميم التي حدثت على المسجد عام (١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م)

رفع البناء بمقدار متر واحد على مدار العام بما في ذلك العقود، وفي عام (١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م) تم تغطية الشرفة المركزية بآجر التيراكوتا، وفي عام (١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م) تم تبطين داخل المسجد بالكامل بالجص وكثير من المواد المحلية التي تحافظ على رونقه القديم وأصالته التاريخية والمعمارية، كما تمت عملية صيانه أخرى عام (١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م) وتخليصة من مياه الصرف الصحي التي كانت متراكمة في أجزاء أسفل أرضيته، كما تم إعداد نظام تصريف جيد لمياه الأمطار من أعلى الأسطح، وفي الظلة المركزية، وتم استبدال باب الوصول إلى شرفة السطح بمصعد كهربائي[١].

ترميم وعمارة مساجد تمبكتو؛ تقاليد فلكلورية

في عهد الأسكيات خلال دولة سنغاي كانت أعمال الترميم والصيانة دورية لهذه المساجد؛ فبعد كل موسم من مواسم الأمطار يتم ذلك، وكانت هذه الأعمال جميعها توكل لقاضي المدينة، وتتم تحت إشرافه المباشر، حيث كان من أكثر الشخصيات الادارية تمتعاً بسلطة دينية قوية، فكان بمثابة القائد الروحي للمدينة، والمشرف الرئيسي على الثلاث مساجد التاريخية في ذات الوقت، وتأتي نفقات الترميم والتجديد السنوى من هبات كافة المسلمين المقتدرين بالمدينة والذين يجب عليهم النفقة على إصلاح وترميم هذه المساجد كوجهٍ من وجوه الخير التي يساهمون فيها بغية الأجر والثواب من الله، ونوالاً لدعوات الناس[٢]، وكانت هذه التبرعات، والصدقات عينية، ونقدية على حد سواء، وكان الإمام العاقب بن عمر (٩١١-٩٩١هـ/ ١٥٠٦- ١٥٨٣م) من أشهر قضاة المدينة الذين كان لهم دور مهم في ذلك الأمر، وكان إمام جامع سنكري، وقد أشرف على ترميم وصيانة جامع جنجيري بير بالكامل، عام (٩٦٦هـ/ ١٥٧٠م)، قبل توسعته لاحقًا من الجانبين الجنوبي والغربي عام (٩٨٦هـ/ ١٥٧٨م)، كما أتم تجديد مسجد سيدي يحيى كذلك بين عامي (٩٨٥-٩٨٦هـ/ ١٥٧٧- ١٥٧٨م)، وأعاد بناء الأجزاء المتصدّعة، والمتهدمة من صحن المسجد على أيدي بنائين تم جلبهم من منطقة

(1) UNESCO, Plan de conservation et de gestion de Tombouctou, p. 36.

(2) UNESCO, Étude sur les mausolées de Tombouctou,p. 19.

جيني .

وخلال فترة الاحتلال المغربي لتمبكتو وتحديداً في عام (٩٩٩هـ/ ١٥٩١م) كانت صيانة المساجد بيد الملوك الجدد، الذين لاحظوا حالة التدهور التي آلت إليها المساجد، فقرروا إنقاذ هذا التراث الإسلامي من خلال حشد الأئمة، ووالي المدينة لترميمها، وذلك رغم أسر كثير من القادة والزعماء الدينيين والروحيين في تمبكتو وترحيلهم إلي المغرب[١].

إلا أن الأهالي والسكان حافظوا بكل ما يملكوا على هذا الإرث الثقافي والديني المميز رغم شدة حاجتهم، وضعف مواردهم في تلك الآونة، فتمت عمليات التجديد، والترميم بشراكات مميزة من كل طوائف الشعب، واستطاع التمبكتيون حفظ إرثهم الروحي، والديني منذ تلك الآونة، وحتى العصر الحديث رغم كل المعوقات، وعندما رأى الملوك والباشوات مدى التعاضد والتعاطف، أعطوا الإذن لجميع السلطات المحلية والروحية في المدينة لتنفيذ وممارسة تلك الأعمال الخاصة بالتجديد والترميم والصيانة، ومنذ عام (١٢٤٩-١٣٧١هـ/ ١٨٣٣-١٩٥٢م) ظلت تلك العمليات بنفس الحماسة والروح المميزة لدى التنبكتيين، حيث أعيد بناء مسجد سنكوري بالكامل، وتنظيفه من الرمال بمساعدة جميع سكان المدينة، وكانت هذه الطقوس تتم بمجرد إعلان الإمام عن بدء موسم أعمال التجديد والصيانة، وذلك أمام كل الناس أثناء خطبة الجمعة، ويتم العمل تحت إشراف رئيس نقابة البنائين، ويقسم الناس لعدة مجموعات عمل، وتكون الغالبية العظمى مسؤولة عن إجراء الطلاء الواقي، في حين أن البعض الآخر مسؤول عن استبدال عوارض الأسقف المتآكلة أو المهترئة، ويكون البعض مسؤولاً عن الأدلية

(١) ومن الفتن التي حدثت على علماء تمبكتو عقب غزوها على يد السعديين المغاربة عندما دخل محمود باشا وجنوده سنة (١٠٠٥هـ/ ١٥٩٦م) بيوت العلماء والفقهاء ورجال الدين ونهبوا ما فيها من الأموال والمتاع والرقيق ثم جمعوهم وأخذوهم مصفدين بالأغلال إلي مراكش وكان منهم أحمد بابا الفقيه والقاضي أبو حفص عمر بن محمود وقد دخلوها أول شهر رمضان وعندما رأى القاضي عمر بن محمود مراكش دعا عليهم وقال «اللهم كما شوشونا وأخرجونا من بلادنا فشوشهم وأخرجهم من بلادهم»، المرجع : عبد الرحمن السعدي، تاريخ السودان، ص ١٧٣ .

التي تستخدم في نزح المياه الجوفية أو مياه الصرف المتراكمة في بعض مناطق المسجد، والجميع ينظر لتلك الأعمال على أنها من أوجب الواجبات الدينية والاجتماعية، فيعبأ السكان لها بالكليّة طواعيّة، وبمحض إرادتهم الحرة، وبالتالي يتعين على جميع الشباب في سن العمل المشاركة، وبمجرد بدء العمل تلاحظ كل فئة عمرية المتغيبين منها، وتذهب للبحث عنهم لإحضارهم إلى الأماكن التي سيشاركون في العمل فيها، حتى لايفوتهم الأجر العميم والثواب العظيم.

وعندما يحين وقت الغداء، تجتمع الفئات العمرية في حلقات، ليتقاسموا الوجبات، ويقوم الشيوخ بخدمة الشباب، وتقديم الوجبات الشهية، والمياه الباردة والثمار، بالإضافة إلى بضع حبات من الكولا، وكذلك القليل من التبغ، وهكذا تأخذ أعمال صيانة المساجد طابع الابتهاج الشعبي التراثي، والفلكلور التنبكتي المميز.

وبعد الظهر، وفي أجواء أكثر هدوءاً يتم تشطيب الأجزاء التي تم ترميمها أو بناؤها في الصباح، وإصلاح بعض انحدارات الأسقف، وطلاء المأذنة الرئيسة، التي تحظى باهتمام خاص ومميز لمكانتها عند أهل المدينة، ويتم من أجل ذلك خلط البانكو بمسحوق الباوباب، بحيث يكون أكثر مقاومة لسوء الأحوال الجوية، ومع نهاية يوم العمل، وقبل صلاة العشاء يقدم الإمام الشكر لله، ويثني على جميع من تعاون، ويدعو لهم بالبركات والرزق، ويؤكد للجميع على أهمية توطيد وحدة المجتمع بعد ذلك، وبعد أداء شعائر الصلاة يدعوهم لبيته ليتناولوا معه وجبة العشاء، والتي يتم تجهيزها فلكلورياً بأفخم وأجواد أنواع الطعام، كنوع من التقدير لهذه الوحدة، وهذه المشاعر الإيمانية التي أبدوها جميعاً في عمارة بيوت الله.

الخاتمة:

لاشك ان المدن الإسلامية التي نشأت تقليدا لمدينة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بالمدينة المنورة كانت قد اصبحت نماذج يحتذى بها في تخطيط الشوارع وتقسيم الدروب والحارات وتوزيع مختلف المرافق الحيوية والخدمية على مختلف أربع واخطاط هذه المدن ولقد كان المسجد هو اللبنة الاولى الاساسية والمبكرة في المدينة الإسلامية ومن ثَمَّ فقد حظي بالعناية الفائقة اختياراً للموضع وترتيباً للعناصر وتخطيطاً هندسياً ومعالجةً معماريةً وهندسيةً فأصبح بالتالى محل اهتمام الجميع وتسارعت نحو الرقي به سواعد وخزانات السلاطين والامراء وعلية القوم فجاءت المساجد درراً لؤلؤيةً تتزين بها ارباع المدن واخطاطها العمرانية ومن أبرز امثلة ذلك ما تم معالجته في هذه الورقة البحثية حيث مساجد مدينة تمبكتو الصحراوية التي انبثت عن تفاعل حقيقي بين المعطيات البيئية والمؤثرات التراثية المحلية والوافدة في ذات الوقت.

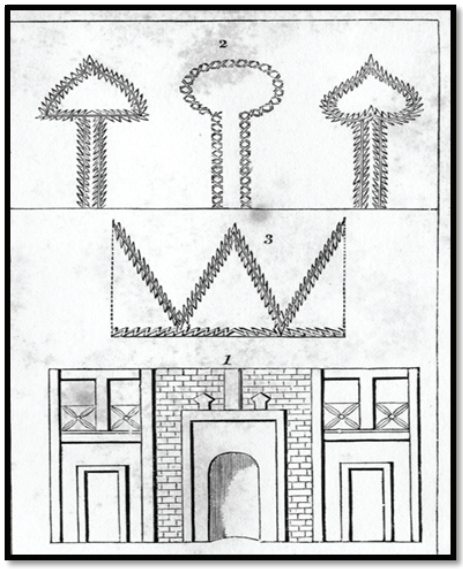

لوحة ١ تفاصيل زخرفية من جامع جنجيري بير بتمبكتو

عن Rene Caillie Vol.2, P.77.

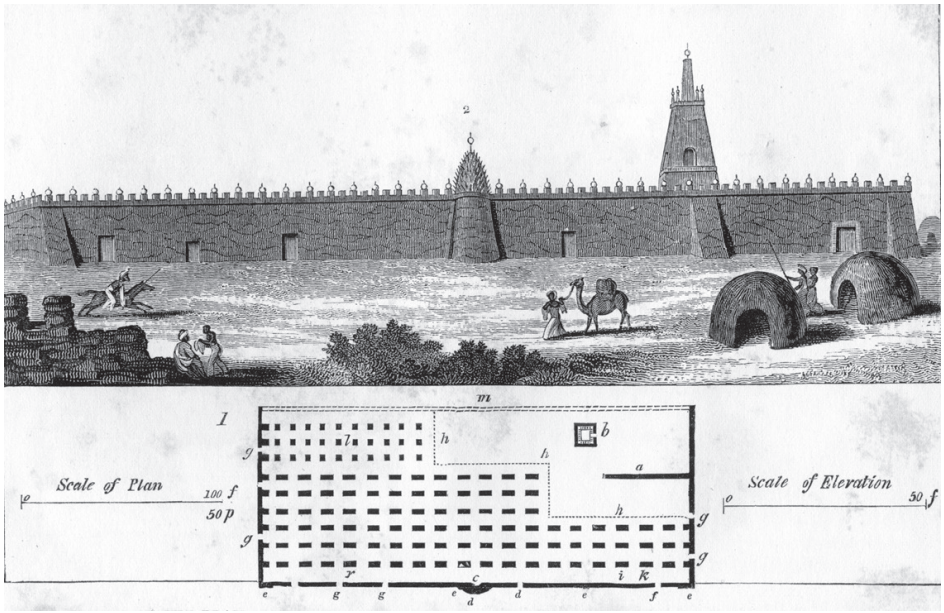

لوحة (٢) مسقط أفقي ومنظر مواجة للواجهة الشرقية لجامع جنجيري بير بتمبكتو سنة ١٨٢٨، عن Rene Caillie Vol.2, P.71-72.

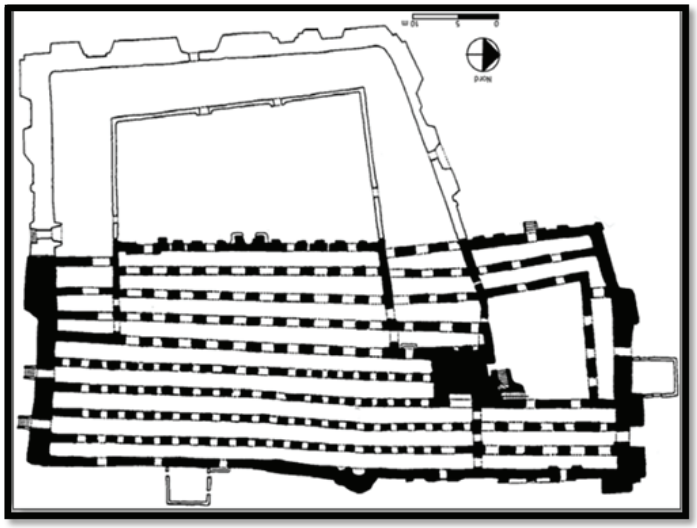

لوحة (٣) جامع جنجيري بير بتمبكتو مسقط أفقي سنة ١٩٩٦ عن تقرير منظمة اليونسكو

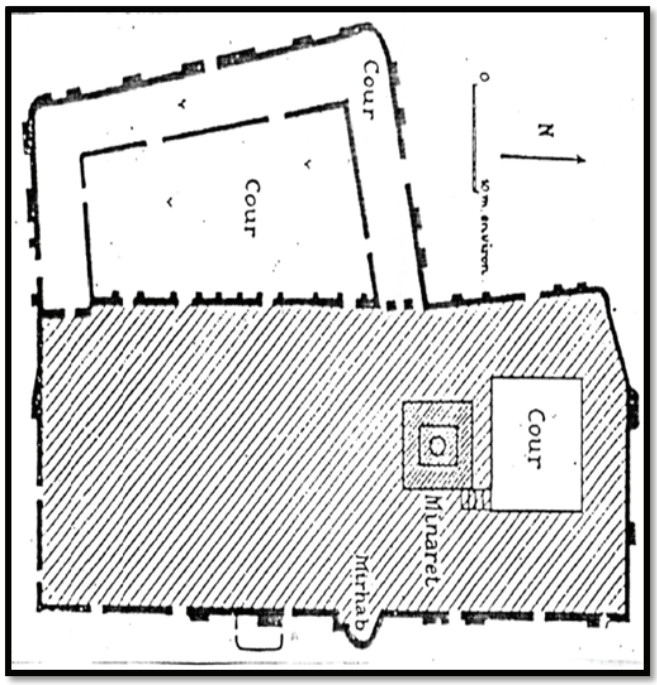

لوحة (٤) مسقط أفقي لمسجد جنجيري بير سنة ١٩٥٢ عن R.Mauny

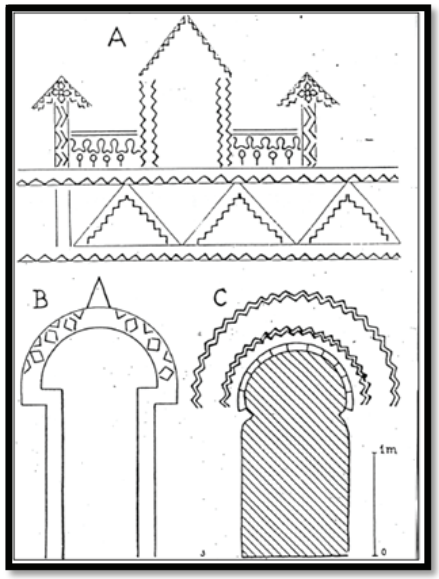

لوحة (٥) مسجد جنجيري بير، ظلة القبلة، بعض الزخارف الجدارية سنة ١٩٥٢، عن R.mauny

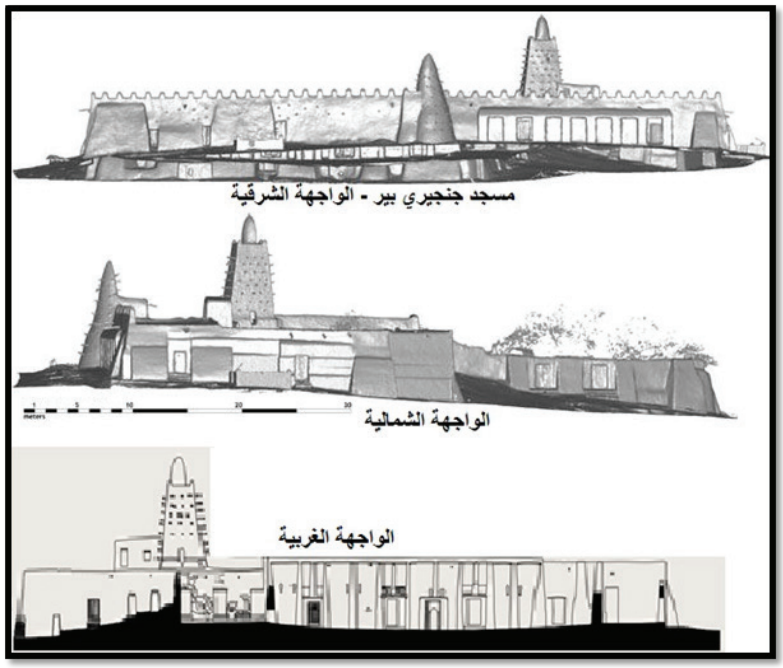

لوحة (٦) مسجد جنجيري بير بتمبكتو – الواجهات .

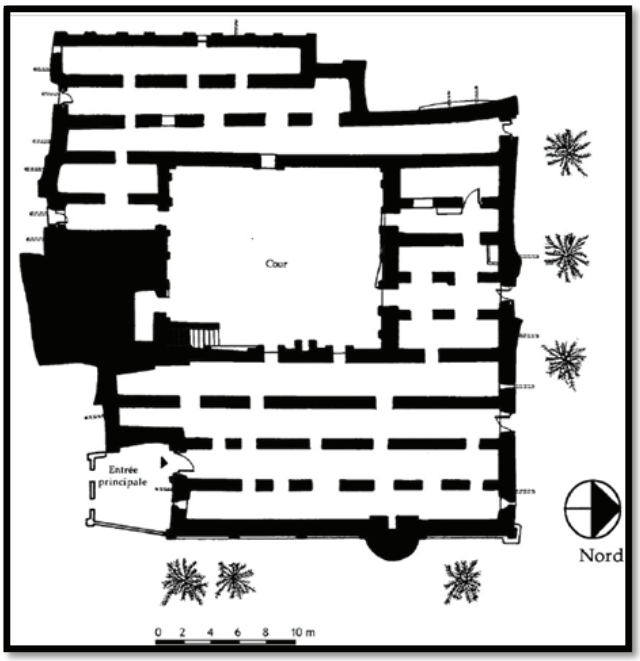

لوحة (٧) مسجد سنكوري – مسقط افقي سنة ١٩٩٦، عن تقرير منظمة اليونسكو

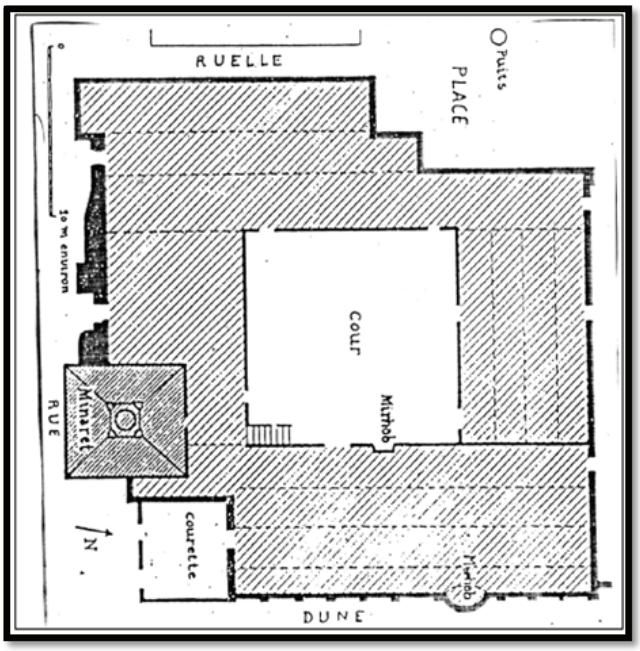

لوحة (٨) مسجد سنكري، مسقط أفقي، سنة ١٩٥٢، عن R.Mauny

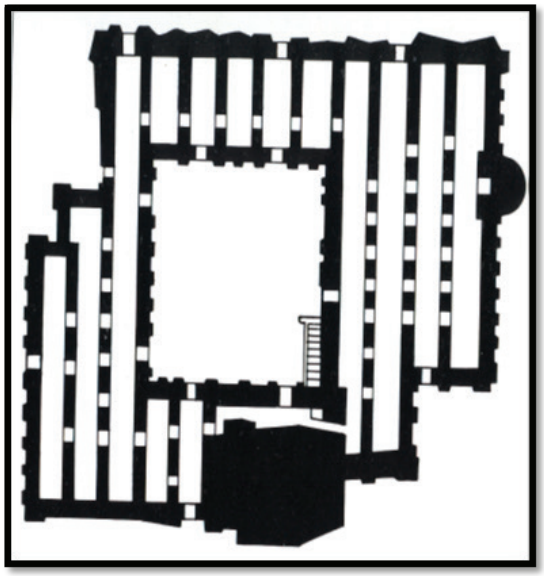

لوحة (٩) مسجد سنكري، مسقط افقي سنة ١٩٨٩ عن Sergio Domian

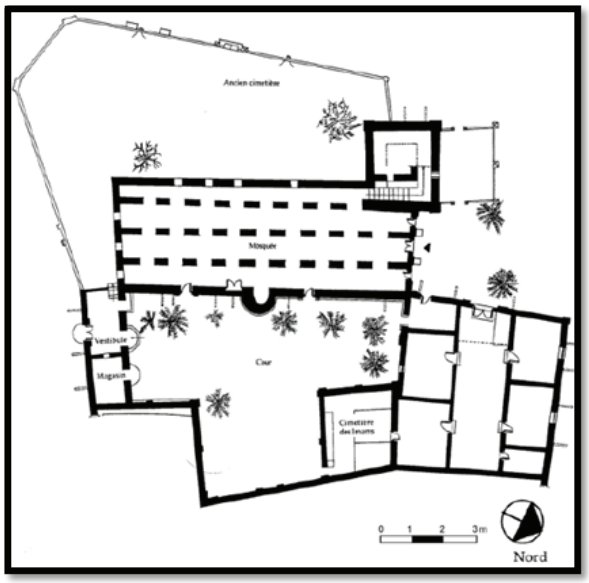

لوحة (١٠) مسجد سيدي يحيى التادلسي بتمبكتو، مسقط أفقي سنة ١٩٩٦، عن تقرير منظمة اليونسكو

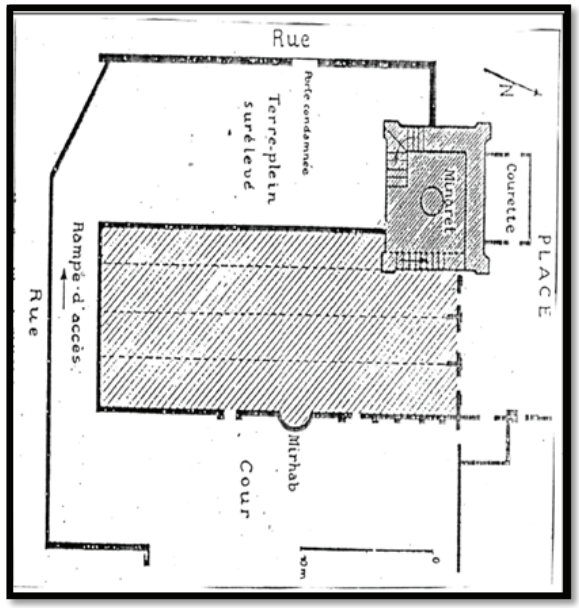

لوحة (١١) مسجد سيدي يحيى التادلسي، مسقط أفقي سنة ١٩٥٢ عن R.Mauny

لوحة (١٢) مالي، تمبكتو، مسجد جنجيري بير، المئذنة .

لوحة (١٣) مالي، تمبكتو، جامع سيدي يحيى التادلسي، احد الأبواب بالجدار الشمالي الغربي.

لوحة رقم (١٤) مالي، تمبكتو، جامع سنكري، الجدار الشمالي الشرقي والمئذنة

قائمة المصادر والمراجع:

أولاً – المصادر والمراجع العربية

١- ابن بطوطة، **تحفة النظار في غرائب الأمصاروعجائب الأسفار**، ج٢، القاهرة، المطبعة الخيرية، ١٩٠٤.

٢- الحسن بن محمد الوزان الفاسي، المعروف بليون الإفريقي، **وصف إفريقيا**، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، الطبعة الثانية، دار الغرب الإسلامي، بيروت ١٩٨٣.

٣- بوفيل، **تجارة الذهب وسكان المغرب الكبير**، ترجمة الهادي ابو لقمة ومحمد عزيز، منشورات جامعة قاريونس، بنغازي، ١٩٨٨.

٤- عبد الرحمن السعدي، **تاريخ السودان**، باريس، ١٩٦٤.

٥- مؤلف مجهول ـ **تذكرة النسيان بأخبار السودان**، بدون تاريخ.

ثانياً- المصادر والمراجع الاجنبية

1- Bertrand Poissonnier, the Great Mosque of Timbuktu: Seven Centuries of Earthen Architecture, Institut national de recherches archéologiques preventives, October 2021.

2- Henry Barth, Travels and Discovers in North and Central Africa, in 5 Vols, London, 1858.

3- Mariana Correia, Luis Guerrero & Anthony Crosby (2015) Technical Strategies for Conservation of Earthen Archaeological Architecture, Conservation and Management of Archaeological Sites, 17 :3, 224-256,

DOI:10.1080/13505033.2015.1129799.

4- Pietro M. Apollonj Ghetti, etude sur les mausolées de Tomboutou, UNESCO, 2014.

5- Rene Caillie, Travels through Central Africa to Timbuctoo and across the great desert to Morocco, performance in the years 1824-1828, in two volumes, Henry Colburn and Ri-

chadr Bentley new Burlington street, London, 1830.

6- UNESCO, Plan de conservation et de gestion de Tombouctou, Mali, République du Mali Ministère de la Culture, 2010.

7- UNESCO, Étude sur les mausolées de Tombouctou, Publié en 2014 par l'Organisation des Nations Unies pour l'éducation, la science et la culture7, place de Fontenoy, 75352 Paris 07 SP, France.

8- UNESCO, Le Tombeau des Askia, Janvier 2003,

9- UNESCO, Le Tombeau des Askia, Gao-Mali, CRATerre editions, 2009.